

□ الانسجام التأويلي بين النص وسياقه - قصيدة "غرناطة" لنزار قباني نموذجاً
Interpretive Harmony between Text and Context - The Poem "Grenada"
 by Nizar Qabbani as a Model

د. خديجة حاج مدني

¹ جامعة محمد لمين دباغين سطيف2 (الجزائر)، K.hadjmadani@univ-setif2.dz

تاريخ النشر: 2024/10/12

تاريخ القبول: 2024/09/29

تاريخ الإستلام: 2024/01/05

ملخص:

أنتهج في هذا البحث الأسلوب التعليمي لأمهد للباحث سبيل الدّخول إلى عالم النصّ ببسر، بداية من سؤالنا ماذا نريد من النصّ؟ بعده سؤالاً تأسيسياً وعتبة مفاهيمية نتطلع منها إلى أبعد مسافات ممكنة نحو الإجراء، إلى سؤال ماذا يُريد منا النصّ؟ لنفهم عبر تلك المسألة أنّنا أمام مهمة الإبداع في قراءة الظاهر والخفي، لنحصل عبر انسجام تأويلي على امتداد دلالي حينما نُجيد ربط النصّ بعالمه/ سياقه الخارجي. هذا يعني أنّه علينا أن نكون على دراية متخصصة بمنهجية تحليل النصّ وفق منطلقات معرفية وإجرائية، فقد نهتينا المقاربة النصّية أنّ التعامل معه تطبيقي بالدرجة الأولى.

الكلمات المفتاحية: النصّ ، السياق الداخلي، السياق الخارجي، الانسجام التأويلي، المقاربة النصّية.

Abstract:

In the current study, an educational approach is adopted to pave the way for the researcher to enter the world of the text smoothly, starting with the fundamental question: What do we want from the text? as a foundational question and a conceptual threshold that aims to lead us to greater distances towards the procedure, asking: What does the text want from us? Through this inquiry, we understand that we are tasked with the creativity in reading the visible and the hidden, obtaining a semantic extension when we skillfully connect the text to its external world/context through interpretive harmony. This implies that we must be knowledgeable about the methodology of text analysis based on cognitive and procedural perspectives, as the textual approach reminds us that dealing with it is primarily practical.

Keywords: Text; Internal Context; External Context; Interpretive Harmony; Textual Approach.

١. مقدمة

أغلب الباحثين ممن اعتنى بتتبّع منهجية تحليل النص وجد الضرورة حتمية بين النص text والسياق context سواء في الدراسات العربية القديمة مع النحاة واللّغويين والبلاغيين أو مع الغربيين كـ"فان دايك" و"جوليا كرستيفا" و"دي بوجراند..." من خلال وصف العلاقات والروابط التي تحقق التماسك النصي (النّصية) من جهة، وتعمل على متابعة تحليل البنية النصية ووصلها بعالمها وقارئها/ مؤولها من جهة أخرى. مما يعني أنّ المقاربة النصية بمثابة سيروية تحليلية لا تعكف على الدّاخل فقط بل تسير إلى الخارج. هذا من شأنه يجعل البحث في استراتيجيات بناء النص من حيث مستوياته اللّغوية المعروفة ومن ثم في كفاءات تحليله وفق سياقه الخارجي، يدخل في اهتمامات "لسانيات النص وتحليل الخطاب". ولتوسيع مجال القراءة، يعمل الانسجام التأويلي Interpretive Harmony على ربط الدّاخل بالخارج من أجل تشييد البنية اللّغوية والدلالية للنّص.

إنّ القارئ في تعامله مع النصّ يبتغي معرفة ماهيته اللّغوية أولاً ثم تحليله وفق سياقه الخارجي ثانياً، لأنّ النصّ بالنّسبة إليه رسالة لغوية دلالية ذات وظيفة معينة ومقاصد محدّدة، كما تُساعد ظروف الزّمان والمكان والطابع الإشاري والمقامي على فهم النصّ وقراءته. فكيف يمكننا المنزج بين اللّغوي والشّعري في قراءة قصيدة "غرناطة" للشاعر نزار قباني؟ استعانة بمعايير النّصية التي حدّدها "دي بوجراند"، ثمّ قراءة للمضمر ممّا تحيل إليه الرّموز والإشارات غير اللّغوية على السّياق الخارجي لتبيين كيف يساهم الانسجام التأويلي على تشييد بنية ثانية للنّص بالنظر إلى سياقه. على هذا الأساس بُني البحث على النّقاط المنهجية الآتية:

1. الجانب النظري: المنطلق التأسيسي والبعد الإجرائي.
2. معايير النّصية والانفتاح على الخارج.
3. الجانب التطبيقي: الانسجام الدلالي في قصيدة غرناطة، من اللّغة إلى التاريخ.

خاتمة

أولاً: الجانب النظري: المنطلق التأسيسي والبعد الإجرائي:

لقد وفّرت المقاربات اللّغوية والأدبية والنّقديّة المعاصرة، مسالك منهجية مغايرة يكون بها القارئ أكثر قدرة على استخراج دلالات النصّ وجمالياته، انطلاقاً مما تقدّمه من نماذج تسهّل عليه المهمة. ولأنّ النصّ وليد لغة، واللّغة هي وسيطه إلى قارئه، كان لزاماً على النصّ أن يُهندس بأسلوب مختلف يلبي احتياجات الغرض الذي كتب لأجله. هذا الاهتمام بالنّص وتفصيله، هو ما أنتج مصطلح "المقاربة النصية" التي تنطلق من النصّ بما هو بؤرة التحليل بكلّ مناحيها، تتكئ على استراتيجيات تحليلية تُكسب القارئ مهارات السّياحة في عوالمه: التّركيبية والدلالية والخيالية وفوق هذا خبرات تُقرّبه إلى عالم الإبداع؛ تأويلاً به يتلمّس الأسلوب الخاص الذي يجعل النصّ الذي اختاره للتحليل يختلف عن نص آخر.

1. استراتيجيات بناء النصّ وتحليله:

1.1 المعنى المعجمي للنّص:

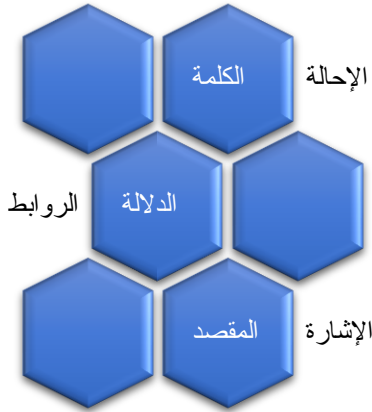
جاء في لسان العرب لابن منظور: "وَنَصَّ الرَّجُلُ نَصّاً إِذَا سَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّى يَسْتَقْصِي مَا عِنْدَهُ. وَنَصُّ كُلِّ شَيْءٍ: مَنَتهَا. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِذَا بَلَغَ النِّسَاءُ نَصَّ الْحَقَاقِ فَالْعَصْبَةُ أَوَّلَى، يَعْنِي إِذَا بَلَغَتْ غَايَةَ الصَّغَرِ إِلَى أَنْ تَدْخُلَ فِي الْكِبَرِ فَالْعَصْبَةُ أَوَّلَى بِهَا مِنَ الْأُمِّ، يَرِيدُ بِذَلِكَ الْإِدْرَاكَ وَالْغَايَةَ. قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: النَّصُّ أَصْلُهُ مَنَتهَى الْأَشْيَاءِ وَمَبْلَغُ أَقْصَاهَا وَمِنْهُ قِيلَ: نَصَبْتُ الرَّجُلَ إِذَا اسْتَقْصَيْتُ مَسْأَلَتَهُ عَنِ الشَّيْءِ حَتَّى تَسْتَخْرِجَ كُلَّ مَا عِنْدَهُ، وَكَذَلِكَ النَّصُّ فِي السَّيْرِ إِنَّمَا هُوَ أَقْصَى مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ الدَّابَّةُ، قَالَ: فَنَصُّ الْحَقَاقِ إِنَّمَا هُوَ الْإِدْرَاكُ، وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: نَصُّ

الحقّاق منتهى بلوغ العقل، أي إذا بلغت من سنّها المبلغ الذي يصلح أن تُحقّق وتُخاصم عن نفسها، وهو الحقّاق، فعصبتها أولى بها من أمّها.

ويقال: نصّنت الشيء حركته. وفي حديث أبي بكر حين دخل عليه عمر، رضي الله عنهما، وهو يُنصّص لسانه ويقول: هذا أوردني الموارد (ابن منظور، د.ت)

لقد اخترت شرح "ابن منظور" لأنّه يجمع ما أورده المعجميون في كتبهم، إذ يتدرّج في إيضاح معنى النصّ شيئاً فشيئاً، من بيان المعنى العام، ثم علاقته بباقي المستويات التي تتداخل بشدّة في استراتيجيات بناء النصّ وتحليله أي التركيبية والدلالية والمقصدية، لنفهم أنّ النصّ هو بُنى مترابطة تتّسق مع بعضها وتنسجم لتقدّم في النهاية كلاً لغوياً له دلالة وغاية.

2.1 النصّ والسّياق من منظور المقاربة النصّية:



إنّ الغاية التي تركّز عليها "المقاربة النصّية" Textual Approach هي جعل الدّراسات النصّية ممارسة إجرائية بالدرّجة الأولى، فالعمل على ضبط معايير النصّ ووظائفه هو من أجل الماضي قدما في تحليله بكلّ ما قدّر من أسس وآليات؛ على هذا الأساس مثّلت "لسانيات النصّ" محطة منهجية تهتم بـ"التّحليل العلمي الذي يعالج مستويات النصّ بالتحليل والدّراسة" (خمري، 2007)؛ أي مقارنة علمية تجريبية تدرس النصّ في علاقتها بالسّياق كما يقول "صلاح فضل".

بشعرية المتخيّل السّردى يقدم "عبد الملك مرتاض" النصّ في أبهى وصف، خصوصا النصّ الأدبي والشّعري، إذ يجمع بداخله العجائبي والمفارق بين الصّامت والناطق وبين المائل

أمامنا والغائب، وبين الفناء والخلود، لتظلّ قراءته مفتوحة ونسبية غير متناهية أولية على الدوام، لأنّه: "الكلام المتجدّد، هذا النّسيج اللّفظي العجائبي، هذا الحيز المطرّس بالحروف الصّامتة وهو ناطق، وهذا الغائب عنا وهو المائل، نمضي نحن ويبقى هو، ونفنى نحن، ويبقى هو." (مرتاض، 2010)

هذه التّيمة الإبداعية تجعل من الصّعب أن ينغلق النصّ الشّعري على نظامه الدّاخلي، لينفتح عبر رموز وإشارات وحركات مراوغة على عوالم أخرى ممكنة أو متخيّلة، لأنّ اللّغة التي كُتبت بها هي كلام فردي يعبر عن أسلوب خيالي جمالي به يبلغ ويبلغ مراتب تُعجز القارئ في كثير الأحيان.

لذا، يكتسي النصّ قيمته من السّياق context الذي يحتويه، لأنّ الأخير يُكسبه خصوصية الاختلاف والفرادة بعده بيئته وعالمه ومجال استعماله. لقد منح مفهوم السّياق قيمة وظيفية للعناصر اللّغوية الدّاخلية بجعل الكلمات تتعلّق مع بعضها في حركية تشير إلى استعمال/توظيف خاص (ززال، 2008)، كما أنّ اهتمام السّياق اللّغوي بالروابط المختلفة قد جعل رؤية الدّاخِل تعكس النّسج المنظّم لما يُفرض في النهاية إلى بنية لغوية دلالية، كما وسّع السّياق الخارجيّ في منافذ الدّلالة حينما منحها دور التّعلّق الدلالي مع تصوّرات ومؤثّرات إضافية تزيد النصّ بسطة ووفرة معنوية.



يدخل في هذا الحيز مفهوم المرجع referent الذي تحدث عنه أوجدن C.K. Ogden وريشاردز A.Richards في النظرية الدلالية الإشارية، فالعلامة sign تشير إلى المرجع الخارجي لتكون بينها وبينه علاقة متقطعة تدل على الدلالة المرجعية التي تحيط بالكلمة. (Ogden & Richards, 1989) هذا ما جعل "جون لاينز" John Lyons يرى أنّ الفكر ذو وزن مساوٍ للثقافة (Lyons, 1981).

سيكون مفيداً جداً، تقديم رؤية "فان

دايك" Van Dyck حول الموضوع، إذ يرى أنّ علم النص مترابط داخلياً ولكنّه متداخل الاختصاصات، ومدار الأمر فيه هو ربط النص بالسياقات المختلفة خصوصاً السياق النفسي والاجتماعي، وكذا وصف الجوانب المختلفة لأشكال الاستعمال اللغوي وأشكال التواصل وبيوضحها، فهو بذات يهتم إجراءً بالجانب اللغوي للنص وسياقاته المرتبط به (دايك، 2001).

نلمح هنا، أنّ الممارسات التحليلية قد وسّعت في رؤية البنية اللغوية بمنظار منهجي يربط النص بسياقه الخارجي، فلم تعد البنية المغلقة هي هدف الدراسة كما أصّل لذلك اللساني فردينان دو سوسير (F, De Saussure) (دو سوسير، 1996)، حيث توصّل مايكل هاليداي (Halliday) مع غيره من المحلّلين إلى أنّ الوحدة التي تميّز النص هي وحدة معنى في سياق (زناد، 1993). هذا المنحى الذي جاءت به النظرية السياقية contextual theory مع البريطاني (فيرث) firth تأكيداً على أنّ اتّساق النظام اللغوي وانسجام بنائه يكون بين الدّاخل والخارج معاً؛ لأنّ المعاني تُكشف من تسييقها، فأضاف أهمية الظروف والمواقف الخارجية المحيطة بالحدث الكلامي. (زوين، 1998)

من هذا المنطلق، لا ينفك علماء النص عن ربط النص بالعالم الخارجي، إذ يقدّم لنا "دي بوجراند" DE Beaugrande مجموعة من المعايير التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء الإجراء، وما قبله من تزوّد منهجي يعين على فهم وصفي لحدود النص، إذ يُضيف نقاطاً منهجية من بينها: "ينبغي للنص أن يتّصل بموقف situation of occurrence تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات strategies والتوقعات expectations والمعارف knowledge وهذه البيئة الشاسعة تسعى سياق الموقف context أما تركيب النص فهو سياق البنية co-text" (بوجراند، 1996) بالإضافة إلى هذا، يحدّد معايير النصيّة وكيف يفتح النصّ معها على القارئ والسياق.

ثانياً: معايير النصية والانفتاح على الخارج:

بوقوف المحلّل/ القارئ أمام النص عليه أن يعي أولاً كيف يحقق النصّ نصانيته عبر تلك الآليات؟ كيف يربط النصّ مع عالمه وسياقه الوجودي ليحظى بمزيد فهم وتدلال يجعله أكثر براعة في كشف خبايا النصّ ومضمّراته؟ وكيف تعين الإحالة عبر الضمائر والإشارات النصية إلى إخراجها إلى سياق وجودي؟

1. معايير النصية في النص الشعري:

تعدّ آليات الاتساق والانسجام من أبرز التّماذج التي تسهّل على الطالب/ المحلّل/ القارئ الدّخول إلى عالم النصّ وفهم أساليب تركيبه ومسالك معانيه وجمالية تصوّره، إضافة إلى معايير أخرى جعلها "دي بوجراند" لوازم بها يتحقّق

النص نصًا مما يدخل في إحداث أثر قرائي لا يقف فيه القارئ عند الظاهر فقط بل يبحث تأويلا عن فهم آخر وقراءة جديدة على غير مثال. وذلك نحو إجراء تحليلي يوسع في معايير النصية.

يمكننا إسقاط تلك المفاهيم على النص الشعري لنفهم معانيه عن قرب، إننا مع هذا الجنس من الأعمال / الشعر، نوجه أنظارنا التحليلية إلى النظام الأسلوبي، لأن الشاعر ينتهج أسلوب الإثارة قصد intentionality جعل نصه أكثر قبولاً acceptability عند المتلقي، من خلال إبراز قدرته على تحقيق نسج جمالي به يندمج التذوق الحرفي مع المتخيل الدلالي، هي فعليا ما يبحث عنه القارئ أن يُراعى الموقف situationality ليكون الاتصال بين القارئ والنص ناجحًا؛ حين يأنس بالنص الذي اختاره محاولاً فك ألغازه، لأن النص الذي لا سر فيه لا يُعوّل عليه، إذ يُنتظر من الشاعر مثلاً أسر قارئه بإخراجه إلى عالم آخر فسيح الدلالة، هي قدرة التخليق اللغوي / الأسلوبي التي لا يقدر عليها الجميع.

ولعل ما يزيد هذا العمل الإبداعي دهشة ولذة، هو تناغمه مع الخارج ليقدم ميزة سياقية خاصة بالبُعد الحسي والمقصدي الذي يتغياه من وراء أسلوبه من تناص intertextuality يزيد الدلالة انفتاحاً ووفرة ويُعدّلاً لاحتواء النص على نصوص أخرى مرتبطة به، بحيث إذا قمنا بقراءته نستذكر وجودها في نص آخر؛ فلا ننسى أن النص ولید سياقات بها ينماز عن نص آخر، إذ ليست كلّ مادة لغوية تصلح لأن تكون نصاً ما لم تستوف شروطاً من بينها تناغمه مع أنواع السياق: اللغوي، التاريخي/ الثقافي، العاطفي والسياق الفعلي؛ إذ به يتحقّق النص فعليا ليعبر عن وجوده بفعل قراءة يحكم عليه بها.

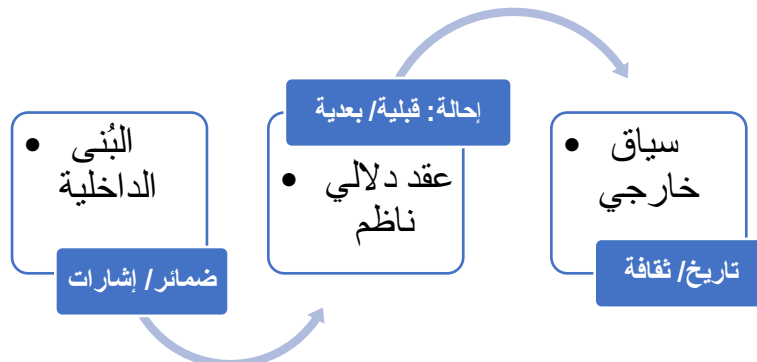
وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ الاتساق (Cohesion) كما أمعنا هو التماسك الحاصل بين تراكيب النص، وذلك بوساطة وسائل لغوية تصل بينها لتعبّر في النهاية عن دلالة (كالضمائر، الحروف) (الجر، العطف،)، التكرار، الحذف، التناص،)، فلن كانت تلك العناصر تحقّق الاتساق الظاهري للنص فإنّ الإحالة على الأسبقية الخارجية هي التي تحقّق انسجامه (coherence) الكلي من خلال اتساقه الدلالي، في هذا إشارة إلى مفهوم الإحالة على العلاقات المعنوية واللغوية الحاصلة داخل عالم النص وخارجه، لعلّ ذلك هو المانع لصفة النصانية. (الكرمي، 2011)

مهمتنا إذا، من منظور "منذر عياشي"، ليس أن نستخلص تلك المميزات الدّاخلية التي تتركب منها النصوص، بل أن نستخلص أيضاً الشّروط التي تجعلها مميزات في الخارج، أي أنّ العملية هي تحديد العلاقات بين بنية النص والسيّاق الخارجي (المركز الثقافي العربي، 2004)

2. دور الإحالة في ربط

الدّاخل بالخارج:

لبحث علاقة الدّاخل بالخارج نعود إلى مصطلح "الإحالة" (referral)، بعدّها مظهرًا من مظاهر الاتساق والانسجام معًا، إذ تُفسّر بالنظر إلى النص وسياقه اللغوي وغير اللغوي؛ هذه الصّور



الكلية للتماسك النصي بوساطة الإحالة، يقدمها لنا الشاعر في قالب دلالي، بعدّها عنصراً لغوياً وعلاقة دلالية ذات وظيفة سياقية ومقامية في آن.

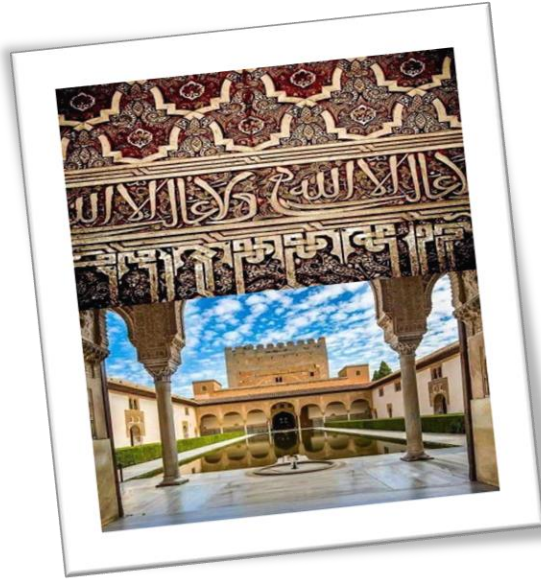
فكما يقول الباحث: "فايز الكرمي": "تقوم الإحالة بدور بارز في إنشاء التماسك الدلالي للنص، فمنها ما هو إحالة إلى داخل النص أو اللغة، ومنها ما هو إحالة على خارج النص، وهذا النوع مرتبط بأنواع محدودة من النصوص، وتحتاج

إلى جهد أكبر للكشف عنها، وإيضاح كيفيتها، وتأويل العنصر غير اللغوي الذي يحكمها ويقع خارج النص، وفي هذه الحالة يستعان بالسياق والمقام الخارجي في تفسير الإحالة النصية (الكرمي، 2011) " هذا التصوّر الواضح لمفهوم الإحالة التي بها يتسق وينسجم النص مع عالمه الخارجي ليمنح المزيد من الدلالات والجماليات المتخيلة

تعين الإحالة على تحقيق التكامل بين أجزاء النص وبُناه الداخلية؛ إذ تربط السابق باللاحق، حيث يستعين بها النص في شكل ضمائر وإشارات ليختصر البناء من جهة، وليشير إلى مقاطع لغوية قريبة أو بعيدة من جهة أخرى. كما تساعد الإحالة في ربط النص بواقعه وفضائه الخارجي؛ إذ نجدها تدخل في علاقة منهجية مع السياق، وفي هذه النقطة ينبغي أن يكون المحلل ذو دراية متخصصة بسياق النص، كي يبحث أكثر في تفاصيله: اللغوية والثقافية والعاطفية والموقفية، ممّا يزيد القراءة وفرة تحليليه وتأويليه تجعل الناظر في النص مبدعاً أكثر كلما تعمق في فهمه وربط الداخل بالخارج.

خاتمة المطاف، لا محيد لقارئ النص من اتباع نموذج تحليلي يستهدي به في رحلة البحث عن جمالياته، لأنّ مهمة استنطاق البنى والكشف عن طاقاتها الجمالية الكامنة خلفها وبين تفاصيلها ليست بالأمر السهل، خصوصاً أنّنا نتعامل مع طبقات المعنى، وسياقات مختلفة ظاهرة وخفية، سطحية وعميقة، داخلية وخارجية تزيد النص سراً ودهشة، ذلك أنّ النص الشعري الذي لا سرّ فيه لا يُعوّل عليه.

ثالثاً: الجانب التطبيقي: الانسياح الدلالي في قصيدة غرناطة، من اللغة إلى التاريخ.



انفتاح الدلالة على عالم النص في قصيدة "غرناطة" لنزار قباني، هو ما يجعل "النص تحوّل من عدم إلى وجود، ومن سكون إلى حركة، ومن اعتبارية إلى دلالة؛ هو استحالة من مفرد إلى مركّب، ومن لغة إلى أسلوب، ومن عدم إلى وجود، ومن مجرد سمات لفظية إلى هيئة عمل أدبي مكتمل، إلى نص عظيم..." (مرتاض، 2011)

1. نص القصيدة:

ما أطيّب اللّقا بلا ميعادٍ	في مدخلِ الحمراء كان لقاءنا
تتوالدُ الأبعادُ من أبعادٍ	عينانِ سوداوانِ في حَجْرِيهِمَا
قالت: وفي غرناطة ميلادي	هل أنتِ إسبانيةٌ ؟ ساءلْتُها
في تينِكَ العينينِ.. بعدَ رقادٍ	غرناطة ! وصحّتْ قرونٌ سبعةٌ
وجيادُها موصولَةٌ بجيادٍ	وأميةٌ رايأتُها مرفوعةٌ
لحفيدةٍ سمراءَ من أحفادي	ما أغربَ التاريخَ كيفَ أعادني

وجه دمشق رأيتُ خلاله	أجفانَ بلقيسٍ وجيدَ سعادٍ
ورأيتُ منزلنا القديمَ وحجره	كانت بها أمي تمدُّ وسادي
والياسمينه رُصعتْ بنجومها	والبركة الذهبية الإنشاد
ودمشق، أين تكون؟ قلتُ تريتها	في شعرك المنساب .. نهر سوادٍ
في وجهك العربي، في الثغر الذي	ما زال مختزناً شمسَ بلادي
في طيب "جنات العريف" ومائها	في الفلّ، في الرّيحان، في الكباد
سارثٌ معي.. والشعر يلهثُ خلقها	كسنا بل تركتُ بغيرِ حصادٍ
.. يتألقُ القرط الطويلُ بجيدها	مثل الشموعِ بليلة الميلاد
ومشيتُ مثلَ الطفلِ خلفَ دليتي	وورائي التاريخُ كومٌ رمادٍ
الرّخرفات.. أكاد أسمعُ نبضها	والرّكشات على السُّقوفِ تنادي
قالت: هنا "الحمراء" زهوُ جدودنا	فاقرأ على جدرانها أمجادٍ
أمجادها؟ ومسحتُ جرحاً نازفاً	ومسحتُ جرحاً ثانياً بفؤادي
يا ليت وارثي الجميلة أدركت	أنّ الذينَ عنّتهم أجدادي
عانقتُ فيها عندما ودّعْتُها	رجلاً يسمى "طارقَ بنَ زيادٍ"

2. الوظيفة الجمالية والطاقة التأثيرية للنص الشعري:

علينا الوعي بداية، أنّ النص الشعري تجربة شعورية وتصور ذاتي موضوع في سياق عاطفي بالدرجة الأولى، فالشعر لن يكون شعراً إذا لم يحز على جماليات التركيب والتصوير ولم يُرح فكرة قديمة ليثري الأفق الإبداعي بمكسب فني جديد، ذلك أنّ الوظيفة الجمالية التأثيرية هي التي تقف وراء مقصدية الإثارة، تكتسي منها الألفاظ والدلالات صبغة الانزياح الأسلوبي والانسياع الدلالي ليميز النص عن نص آخر، على هذا الأساس تكمن قيمة النص الشعري في وظيفته الجمالية لتجعل القارئ يعيش في متعة ولذة على غير مثال.

اللافت في قصيدة "غرناطة" التي قدّمها الشاعر السوري الدمشقي "نزار قباني"، قدرتها على رسم لوحة تاريخية دقيقة التوظيف والتعبير، إنّها انعكاس لجمالية النص الأدبي حيث القدرة على "حوارية النصوص، وحوارية النصوص ليست إلا تناص النصوص، وذاتك أمران لا مناص منهما في تكوين النص، وكيّنونته معاً. والنص أيضاً نصنصة، حتمية لا محيد عنها" (مرتاض، 2011) كما تقول جوليا كريستيفا Julia Kristeva، إنّ هذه القصيدة/ النص بمثابة صوت يرحل عبر الوجود اللغوي ليتقاطع مع نصوص وأصوات أخرى ضمن سلسلة إبداعات مع تاريخ الأندلس وملاحم الأجداد وزخارف المكان وزينة المرأة العربية والحضارة الماجدة وأماكن آخر أبدع الشاعر في ضمها إلى لوحته الفنية عبر أسلوب الاستدكارها/ الاستحضار.

مع هذه القصيدة، يمكن للرّسام أن يحمل ريشته ليبدع في تلوين لوحة واضحة المعالم عن الأندلس، يُسمّعوننا في ملامحها نبض حضورها الدائم فيها. لقد أبت أيقونة "غرناطة" التليدة إلّا أن تنساب من بين شقوق الذاكرة، فتاريخها كُتبت له البقاء والديمومة والاستمرارية في ذاكرة كلّ عربي، وقد استطاعت "غرناطة" أن تُسرّب الحبّ العنيف وتسبّكه في خبايا الزّمن بأجمل ما في أبجديات التّاريخ من لواعج. "غرناطة" العنوان الذي اختاره نزار قباني لقصيدته يشي بالوضوح لارتباطه بسياق تاريخي لا ينقطع مدّده، فما هي غرناطة؟

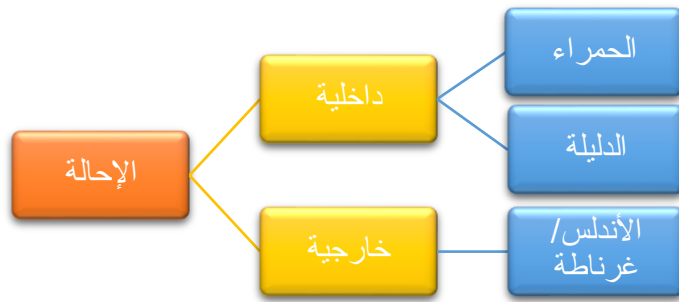
ما أطيب اللقيا بلا ميعاد

في مدخل الحمراء كان لقاءنا

3. التحليل: دور الإحالة في تحقيق الانسجام التأويلي بين النص وسياقه:

"الحمراء" هو القصر الذي شيّده "محمد بن الأحمر" في غرناطة إحدى مدن الأندلس، ويُعدّ رمزا حضاريا على جلال العمارة الإسلامية من زخرفات ونقوش، تعبيرا على الازدهار والرّقي الذي عاشه العرب قبل ثلاثة قرون.

في مدخل "الحمراء"، وعند اللقاء بالدّليّة الإسبانيّة (مرشدة السيّاح)؛ بدأت السيولة الدّلالية تنسج بناء النص



وتتدرج في رسم عقد دلالي ناظم، عرج عبر رحلة التّدكر والاستحضار لأمجاد العرب ولبطولة "طارق بن زياد" فاتح الأندلس. إنّها فاتحة الحديث عن كلام طويل وتاريخ مجيد، وفق علاقة دلالية تربط الجزء بالكل من البداية.

لقد مثّل "قصر الحمراء" علامة لغوية ورمزية في آن، تحيل عبر دلالتها التاريخية على تفاصيل سياّتي إبانيتها في الآتي من الأبيات،

الأسلوب الإحالي الذي انتهجه النص من الفاتحة يشير إل مقصدية الانتقال التدريجي من الخاص إلى العام، أو الجزء نحو الكل، لأنّ الحمراء لا يقف عند عتبة المكان، بل يفتح الباب على حضارة عريقة بكل ما فيها من دلالات وتعالقات توضّح علاقتها بالعنوان "غرناطة"، وهنا نبدأ رحلة الاستكشاف عن علاقة الدّاخل مع الخارج رويدا رويدا مساءلة للنّص الذي أمامنا، وما وراء اللقاء.

كما أنّ الوعاء المكاني الذي سكبه النص في الفاتحة يُعتبر مفتاح الفهم لأنّه يستدعي التّاريخ، والدّليّة بملامحها العربيّة أيقظت الذاكرة لتستحضر أمجاد أجداد الشّاعر بني أميّة والفتوحات، حين قُدّمت التّضحيات الجسام لفتح الأندلس وجعلها منارة يهتدي بها العربي في التعريف بذاته بكلّ فخر:

عنان سوداوان في حجرهما	تتوالد الأبعاد من أبعاد
هل أنت إسبانية ؟ ساءلتها	قالت: وفي غرناطة ميلادي
غرناطة ! وصحت قرون سبعة	في تينك العينين.. بعد رقاد
وأمية راياتها مرفوعة	وجيادها موصولة بجياد



تنسجم الأبيات ببعض بوساطة إحالة نغمة السّؤال والاستغراب إلى منظومة من الأحداث اختصارها وُضع في وعاء زمني يُبعد التّشتت النّصي لأنّه مرتبط ظاهراً وباطناً بـ"غرناطة" (قرون سبعة، أميّة راياتها مرفوعة)، ولأنّ التّكرار يُعدّ أداة من أدوات الاتّساق إذ يعمل على تقريب الدّلالة النّصية من خلال تأكّيده عليها، ويجعل القارئ في صلة دائمة بالدّلالة المركزية؛ كُثرت لفظة "العينين" كما كُثرت لفظة "غرناطة" وكذلك "الجياد"، مما عمل على تقوية الدّلالة التي يرغب النّص في توصيلها. وهي وصل الحاضر بالماضي/ التاريخ المجيد، وربط الجزء ب كله، أي غرناطة بالأندلس والعروبة.

فتاريخ غرناطة انسلّ من سواد العينين وانسلّت معه خصلات جمال ذاك الزّمن وبهائه ورونقه ونمائه "في حجرهما تتوالد الأبعاد من أبعاد"، مع تكرار نفس أدوات الاتّساق الواو للربط وحرف الجر "في" دلالة الزمان والمكان، كما أنّ الإحالة على السياق الخارجي قد سدّت ثغرة التشتت من أجل المعرفة بالخلفية التّاريخية لأنّه مقام استذكار واستحضار:

لحفيدة سمراء من أحفادي	ما أغرب التاريخ كيف أعادني
أجفان بلقيس وجيد سعاد	وجه دمشقي رأيت خلاله
كانت بها أمي تمد وسادي	ورأيت منزلنا القديم وحجرة
والبركة الذهبية الإنشاد	والياسمينه رصعت بنجومها

إنّ غرناطة في هذه الأبيات هي الحفيدة العربيّة السّمراء، هي الوجه الدّمشقي الفاتن، هي الرّوح المنحوتة بأجفان بلقيس وجيد سعاد نموذجاً/ رمزا الجاذبية والجمال، غرناطة في هذا السّياق هي الدّليّة ذاتها، مذ "قالت: وفي غرناطة ميلادي"، فالدّليّة في كلّ مرة تستدعي المدلول "غرناطة" كأنّها الدّال عليها والمُحيل إليها، وصفاتها بمجموعها وظّفها النّص وبثّها ليُبعد أي شرود عن المعنى المركزي، إنّهُ شكل من أشكال اللّعب باللّغة داخل النّص الذي يضيف الإثارة والاستعصاء لبحث القارئ عن تلك الدقائق والرّموز التي يوظّفها كي يمارس مع قارئه لعبة المراوغة، ومنها كي يمنحه فهما ودلالات جمالية تحيط بمقصده .

سارت معي.. والشعر يلث خلفها	كسنا بل تركت بغير حصاد
يتألق القرط الطويل بجيدها..	مثل الشموع بليلة الميلاد
ومشيت مثل الطفل خلف دليتي	وورائي التاريخ كوم رماد
الزخرفات.. أكاد أسمع نبضها	والزركشات على السقوف تنادي

في كلّ مرة يُكرّر النّص أنّ الدّليّة قد ضحّت إكسير الاستدكار في مشاعر الشّاعر، فتنفّست ذاكرته من ملامحها العربيّة ما جعله يطلّ على غرناطة من أعلى قمّة من قمم التّاريخ، وهو يستمتع بتلك الصورة المؤتلفة من ذاك الزّونق وذاك المهاء وذاك الضّيّاء من زخرفات وزركشات تُطرب وتنادي، منها (الدّليّة) وفادة التّذكير ومنه رفادة استحضار تاريخ "غرناطة" الذي أصبح رمادا وجها تفجّر بمعاني الأسى، يظهر التضاد الشعوري بين الداخل والخارج، كثل الأمانة التي أبت التحقّق.

لقد صمّت السّائح زمنا للذكرى، سائرا مع ووراء الدّليّة ليسمع موشحا بمدّه البصري على الجمال، كطفل يحمل



رمزية البراءة وشغف المعرفة والتساؤل، يمشي مشدوها في الحضارة التي ضاعت من العرب ذات زمن أسود يجرّ حسرته وغبطته، قصر بمهابته الفنية يستحضر مفتاح الفهم عن طريق الإحالة المقامية التي حقّقت الانسجام، إذ تكاد الرّوابط اللّغوية تخلو كما العادة عدا "الواو" فمن البداية والحديث عن غرناطة، وعن تاريخها سرمدى.

هذا من شأنه يُمهّد لإبراز مخطط حول الحقل الدلالي semantic field يبيّن حركية الكلمات داخل النّص؛ ووفق "حلمي خليل" تتأسّس نظرية الحقول الدلالية على تصنيف للألفاظ المستعملة في نصّ من النّصوص يكون بينها رابط دلالي أو علاقة دلالية تبين مدى تعالقها فيما بينهما واشتراكها في معنى جامع لها تعبّر عنه الكلمة المركز. (حلمي، 1996)

إنّ كلمة غرناطة، أو غيرها من الكلمات المفتاحية داخل القصيدة تُفهم في إطار معناها العلاقي/ السياقي مع غيرها من الكلمات والرموز: كالتاريخ والدّليّة وبنو أمية وطارق بن زياد ودمشق وتمثيلات وكنيات واستعارات حيث ترتبط مع بعضها في علاقة استدعائية تعبّر عن الجزء بالكل، فهي مدن وتواريخ وصفات تعود إلى المجلد أي الأندلس وتاريخها، وعليه لو أخذنا مفردة "الحمراء" لوحدها وبحثنا عن معناها العام المراد به "قصر الحمراء"، فلن نفهم من عزلها ذلك التّاريخ الذي يربط القصر بغرناطة وفاتح الأندلس "طارق بن زياد" والأجداد وذكريات المنزل القديم والبركة الذهبية والعروبة ولما عدنا إلى التاريخ القديم، فكلّ ذلك الاتساق والانسجام إنّما كان ضمن سياق الثّقافة والتاريخ الذي حضر في رحلة التصوير والاستدكار. إنّه



إحالة حقل دلالي إلى ثقافة وتاريخ.

وليس هذا هو الحقل الدلالي الفريد الذي يظهره النص عبر آليات الاتساق والانسجام الظاهر والخفية، بل يوجد حقل دلالي للمكان وتاريخه وأجزائه، حقل دلالي للصفقات التي دارت حول "الدليّة" مما أحال إلى بعد العروبة والأصالة في "غرناطة"، وكذا حقل "الأحاسيس" من أسي واستغراب وفرح ودهشة وصمت ورغبة تبدّلت في خلجات الشاعر من محطة لغوية إلى أخرى، لنجد أنّ الحقول الدلالية بأكملها ترتبط ببعضها لتشيّد في النهاية البنية اللغوية- الدلالية لنص "غرناطة" بما يتناسب وسياق التاريخ والثقافة.

قالت: هنا "الحمراء" زهو جدودنا	فاقرأ على جدرانها أمجادي
أمجادها؟ ومسحت جرحاً نازفاً	ومسحت جرحاً ثانياً بفؤادي
يا ليت وارثي الجميلة أدركت	أن الذين عنتهم أجدادي
عانقت فيها عندما ودعتها	رجلاً يسمى "طارق بن زياد"

فرحة التّزاوج الثقافي الذي عاشه الشاعر منذ البداية، قد غرّبت الدّليّة حينما ورّثت الإسبان زهو جدوده "الحمراء" وما استنزفوه من جهود وحبّات قلوبهم وأضواء عيونهم صوب الأندلس، فالعائد الذي ألصقته خبرها "أمجادي" هو الدّليل، هذه الدّعوة للقراءة أحدثت قلقاً دلالياً في النصّ عاشه السّائح إذ وقف موجوعاً بنزيف جرح ثابّ أصاب الفؤاد، لقد أضرم التّصريح النّيران في جوانحه فتسعّرت جذوة نفسه واسطّلت بأنات التّحسّر واليأس على غرناطة التي خلّفت جذو الآهات في حلقه وشجو اللّواعج في خافقه وزفرات القلب المشوي في خلجاته، لكن إن خانتها ذاكرتها فملاحمها تبرر انتماءها للعروبة، والنّص هنا يُسدل السّتار على بنيته حينما



يُقدّم الدّليل الذي يربط اللّغة بسياقها الفعلي، "طارق بن زياد".

فالكلمة المركزية التي سارت إلها الأبيات والتراكيب المقطعية اتّساقاً وانسجاماً هي "غرناطة"، العنوان ذاته، لأنّه استحضار للتّاريخ ومحاورته شخصياً وقد أسهم الاستدكار في رسم خارطة القصيدة فكّل الأوصاف والتّساؤلات والإحالات والمحاورات تطلّبت التّذكر والاستحضار، وهو فعل تبدّى من أوّل النصّ إلى ختامه.

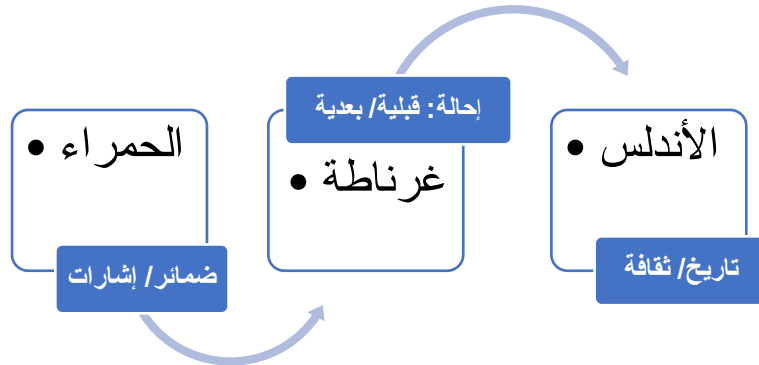
هذه الهندسة التركيبية/ السياقية بدورها، تُفهمنا معنى ما ذهب إليه "دي سوسير" في أنّ قيمة العلامة اللغوية تكمن فيما يُخارفها وما يجاورها من علامات لغوية أخرى، وأنّ الدّراية بالقانون الدّخلي للنّسق اللّغوي مهم في معرفة اللّعبة اللّغوية التي تجري من الدّاخل، فلعبة الشّطرنج التي مثّل بها برؤيته المنهجية تهتم بالممارسة الداخلية. (De Saussure , 1995)

خاتمة:

كانت هذه الدّراسة محاولة لكشف الحُجب عن كيفية ترابط بُنى النّص مع السياق الخارجي بوساطة دعائم الاتّساق والانسجام، من أدوات لغوية وإحالات مقامية منحت النّص بُعدا دلاليّا متماسكا. وهو نموذج شعري كسر المألوف عندما عمل في خفاء وعبر الانسجام التأويلي بين النّص وسياقه على نسج البناء الكلّي حينما ارتبط الدّاخل اللّغوي بالخارج الفعلي "التّاريخ".

- قدّم لنا عنصر الإحالة في هذه القصيدة، مظهرا من مظاهر التماسك النصي والتّعالق الدلالي، ممثلا في البنية الإحالية، التي أشارت من بدايتها بواسطة ضمير الغائب/ الحاضر "ها" إلى عناصر لغوية وسياقية قبلية وبعديّة، داخلية وخارجية، ممثلة في غرناطة تحديدا وفي الدليّة التي كانت الوجه المقابل لها والمعبر عنها. فهذا الضمير بالذات، جعلنا نعيش حدثيّة الموقف وأبعاده السّياحية الجمالية، إذ نجده يساهم في تشييد البنية الإحالية مما يفضي إلى البنية النّصية الشّاملة وسياقها التّاريخي العريق. وهو ما يمكن أن نعتبره إحالة نص إلى النّص الخارجي/ التاريخ والثقافة، أي بنية لغوية ودلالية متّحدة تحيل بواسطة الضمير إلى النّص الكلّي. حيث أشار العنصر الإحالي إلى تناسق لغة النّص وسياقه

معا.



- إدراك هذه البنية الإحالية احتاج منا إلى فهم البنية النّصية الكلّيّة، مما يعني أنّ هذه التركيبة المتماسكة لغويا والمتعلقة دلاليا، جزء لا يخرج عن الوحدة الدلالية

الكبرى ونظام النّص بشكل عام؛ فهذه الصّيغة اللّغوية التي تضمّنها عنصر الإحالة، بمثابة الأسلوب الذي انتهجه النّص لسرد تفاصيل اللقاء، أي الاعتماد على أسلوب الإحالة ليعود في كلّ مرة إلى العقد الدلالي النّاطم؛ "غرناطة"، بوصفها المكان والزمان والتاريخ والذاكرة والثقافة والعروبة والأجداد والتراث الخالد والمرأة التي ترمز للحياة والنّماء، تاريخ بُعث من جديد وبالتالي يعدّ ضمير الإحالة بواسطة هذه البنية اللّغوية بمثابة إشارة ضمنية إلى بنية نصية أكبر وأشمل، فلم يربط بداية القصيدة بنهايتها فقط، بل ربط نصا بنص وسياقا بمقام.

- يتبيّن لنا ممّا سبق، أنّ عناصر الإحالة تتموضع ضمن تركيب لغوي يربطه بالعالم الخارجي، فيتم الانطلاق منها لتحديد دلالة النّص، إذ تساعد بشكل كبير في فهم استراتيجية البناء النصي وتحقّق معايير النصية.
- كما تُسهّم الإحالة في تحديد بنية النّص ودلالته وأبعاده السّياقية، فكما تؤثر في النّص، يؤثر هو أيضا فيها من جهة موازية ليكشف عن ملامحها اللغوية وغير اللغوية. هذا يستلزم أنّ قيمة الإحالة تبرز في بناء النّص من خلال الرّبط بين ما هو سابق وما هو لاحق داخل النّص من جهة، وكذا الرّبط بين النّص والعالم الخارجي من جهة أخرى، وكلّه يوضّح كيف تتناسق الأبيات والتّراكيب والأجزاء اللّغوية ضمن أفق لغوي واحد هو النّص.

- البنية الإيقاعية: بدورها أكدت ذلك من خلال التبادل الحوارية والتحول الصوتي بين الدّوات التي رتبت البنى الدلالية بدقّة متناهية؛ إذ كانت دقيقة في الحديث عن "غرناطة" وكأنّه حوار مباشر ومساءلة حيّة لتاريخها التليد، ونقول الدّوات بصيغة الجمع لأنّ الحوار لم يكن بين السّائح والدّليّة من صيغة السّؤال والرّد فحسب، لأنّه لم يطع على كلّ النّص إنّما كان لآخر السّائح الشّخصي (الأنا الدّاخلية) دور كبير في بلورة البؤرة الدلالية المهيمنة عبر الاستدكار في صمت والتّحسّر داخليا وقد عبّرت الذاكرة بشكل جلي عليه.
- كما أنّ الرّوي حرف "الدّال" دلّ على الدّلالة المركزيّة "غرناطة" وأحال إليها بعدّه حرفاً انفجارياً يُجَاهِر الصوت حيث فجّر التّاريخ في وجه الذاكرة؛ فالشّاعر في كلّ مرّة كان يضُمّ صور الماضي إليه ضمّ اللاهف الشّعوف. وهذا تأكيد قوي على أنّ ظاهر النّص وباطنه، أوّل وآخره، داخله وخارجه جُذب إلى عقد دلالي ناظم مثّلته "غرناطة" وانفتاحه على السياق الخارج من خلال القافية المفتوحة.
- في البنية الدلالية: يُعتبر التّوصيف آلية انسجامية إذ يعمل على تقريب الدّلالة النّصية ويجعل القارئ في صلة دائمة بها، لهذا نجد الحقول الدلالية مكرّرة بين المقاطع: حقل الصّفات وحقل المكان كما أفضى التّكرار المنطقي إلى تأكيد الدّلالة المركزيّة لأنّه حديث عن "غرناطة"، بوساطة الذاكرة/ التّاريخ، وما "الحمراء" إلا جزءاً من كلّ. فقد فجّر القصّر التّاريخ بأكمله وحينما أغلق النّص ذاته بالشّخصية البطوليّة "طارق بن زياد" أبعد أيّ شرود، مما عمل على تشييد بنية دلالية متكاملة محكومة بعروبة "غرناطة".

الإحالات والمراجع:

1. ابن منظور. لسان العرب. (ط1). دار صادر.
2. الأزهري زناد. (1993). نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً. المركز العربي الثقافي.
3. الزّعبي، أمّنة صالح. (2013). عناصر الاتساق والانسجام النّصي. مجلة جامعة دمشق، م29(العدد 2/1).
4. الخمري، حسين. (2007). نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال. منشورات الاختلاف.
5. خليل، حلمي. (1996). الكلمة: دراسة لغوية ومعجمية. (ط2). دار المعرفة الجامعية.
6. دي بوجراند، روبرت. (تر: تمام حسان). (1998). النص والخطاب والإجراء. (ط1). عالم الكتب.
7. زرال، صلاح الدين. (2008). الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القديمة حتى نهاية القرن الرابع الهجري. منشورات الاختلاف.
8. مرتاض، عبد الملك. (2010). نظرية النص الأدبي. (ط2). دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
9. زوين، علي. (1896). منهج البحث اللّغوي: بين التراث وعلم اللّغة الحديث. دار الشؤون الثقافية العامة.
10. فان دايك. (تر: سعيد حسين بحري). (2001). علم النص: مدخل متداخل التخصصات. (ط1). دار القاهرة للكتاب.
11. الكرمي، فايز. (2011). تحليل البنية النّصية من منظور علم لغة النّص. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد 25.
12. دو سوسير، فردينان. (تر: يوسف غازي، مجيد النص). (1986). محاضرات في الألسنية العامة. المؤسسة الجزائرية للطباعة.
13. عياشي، منذر. (2004). العلاماتية وعلم النّص. (ط1). المركز الثقافي العربي.

15. de Saussure, F. (1995). Cours de linguistique générale. Editions Payot, Rivages. Paris.

16. Lyons, J. (1981). Language and Linguistics: An Introduction. Cambridge University. New York.